حين كان القصير ينتفض من الإثارة وساعده العاري يلامس ساعد مراهقته، وكان بين الحين والآخر يحسّ بحاجة الى تلاحم أشد فيضع ساعده كله فوق ساعد ملاصقته ويغمض عينيه برهةً ثم يفتحهما ليعود متحفزاً ويراقب الطريق والمقهى و«كاونتر» المعروضات الشهية، فاذا اطمأن عاد الى التفاف الساعد بالساعد.

لكن النادلة الفليبينية اقتحمت هي و«الكيك» و«الكابوتشينو» العالم السحري للأربعة، فاعتدلوا جميعاً، وابتعدت السواعدُ والأصابع، وأخذوا يراقبون حركاتها البطيئة وهي تُنزل طلباتهم قطعةً قطعة، مشيعةً بتصرفها الرتيب هذا موجة العشق العارم. عندئذ وجد اللسانُ فرصته، فتمتم القصير كلماتٍ فجّرت الضحك والقهقهة، فعادت المراهقة الطويلة إلى غنجها اللذيذ فابتسمتْ وضحكت ونكتت. وبدا أن هناك بحراً من مخزون الكلمات سينطلق من قمقمه ليضفي متعة تبادل أحاديث لا تنتهي.

لكن الهدوء ساد مرة أخرى بولوج ثلاثة شبان متقاربي الأعمار، وهم يضحكون ويصخبون بصوت عال. ولعلّهم ظنوا المقهى خالياً فانطلقوا متحررين من القيود. كان في يد كل واحد منهم هاتف متنقل. وإذ توقفوا قرب منضدة المعروضات الزجاجية اختاروا كميةً كبيرةً بدت وكأنها لدعوة أو وليمة، وأشار أحدهم الى صينية «كيك» مغطّاة بالقشدة البيضاء وعرض على صاحبه أن يشتريا اثنتين يرمي أحدُهما بإحداهما وجه الآخر، ونادوا النادلة الفليبينية وسألوها عن أسعار الصينيتين. وبالصوت العالي نفسه، استفسروا عن كل شيء، حتى إذ انتهوا من طلباتهم التفتوا مصادفةً، ففوجئوا بالعاشقين فصمتوا تماماً. ولا بد أنهم ذهلوا لقداسة الجلسة وخصوصيتها حيث تتلاحم البراءة فيها بالرغبة، فاختفت أصواتهم، وتوجهوا بهدوء نحو منضدة قريبة بانتظار الانتهاء من طلباتهم. لكن حركتهم تلك باتجاه مركز العشق جمّدت حركةَ العشاق، فانحسرت نظرات الأربعة عن وجوه بعضهم البعض، واكتفى الطويل بملعقة واحدة من رغوة القشدة الحليبية الممزوجة بالقهوة والسكر، ثم نظر الى صاحبه نظرةً ذات مغزى. فنهض الأربعة إثرها يسبقهم القصير بسرعة البرق نحو الشارع.

أوقف المراهق القصير سيارة أجرة، ثم تبعته الفتاتان بتثاقل وقد غامت الدنيا في تقاطيعهما، وهما تجرّان أرجلهما ببطء فكأنهما تسيران إلى اللحد. وإذ جلستا في المقعد الخلفي لسيارة الأجرة، انحنى الشابان نحوهما حتى كادا يسدّان باب السياراة المفتوح بجسديهما وهما يودّعان الفتاتين ويصافحانهما، فابتسمتا على مضض. لكن القصيرة لم تحتمل؛ فقد تشنّجت بينما تكلم الثلاثة في وقتٍ واحد، وأخذوا يؤشرون بأيديهم. ولما كنت في المقهى وكانوا في الشارع فإنني لم أستطع سماع شيء ممّا قالوه، وخيّل إليّ أنهم قضوا بضع دقائق على تلك الحال، أغلق الشابان بعدها باب السيارة فيماطفقت القصيرة تمسح عينيها وهي تنتفض، ثم أخذت مع صاحبتها تؤشران من زجاج السيارة الخلفي، وتلوّحان بكفيهما حتى اختفتا، والشابان ينظران بجمود وخيبة الى الجهة نفسها وكأنهما تمثالان لا يتحركان.

بغداد
١٩٨٦

يوسف

محمد اليحياني

نفحني خمسين ريالاً دفعةً واحدةً، ورقة واحدة من فئة الخمسين، سلّمها قُدّامَ عينيّ في رزمة أوراق من الفئة ذاتها... ودسها في جيب دشداشتي وربّتَ على كتفي وشدني إليه بمحبة. لم يكن بمكنتي في اللحظة تلك تحديد شعوره نحوي. ساعتها أحسست رطوبة كثيفة تجتاحني... وكنت أشعر بالتعب والدوار كمن قطع المحيط سباحة.

كنا نقطع بخطوات واهنة الليوانَ العريضَ الذي تزيّنه روزانٌ فُصّتْ في البناء على أشكال مثلثة، وثمة بنادق قديمة مسمّرة على الجدران بتقاطع، وصُوَرٌ لجمال وأحصنة وصُوَرٌ وجوه حية تعود إلى أزمنة بعيدة أو هكذا صُوِّرتْ لي في تلك اللحظة الشديدة الشحوب. وكانت في الزوايا طَنافس مصفوفة بعناية فائقة.

ـ «لا تتردد مطلقاً. تعال في أي وقت. أريدك دائماً. ليس دائماً بهذا المعنى؛ فأنا لي مشاغلي أيضاً. أنت تعرف. ولكنك تستطيع أن تأتي في أوقات مختلفة. وفيما يخص الشغل فسوف أحاول. أنا أبغاك ولكن في حدود، وكما اتفقنا منذ الأول. صداقتنا تبقى بيني وبينك. على كل حال اتّصل أولاً».

كان قد سجّل على رفّ السرير في ورقة صغيرة أرقامه (تلفون البيت ورقم المزرعة وتلفون السيارة) ولعله نسي رقم المكتب.

عند البوابة الخارجية صافحتُ الرجل مبدياً بخجل رغبتي في العودة، بينما كنت قد وطّنْتُ العزمَ على أن لا أريه وجهي ثانية.

في الصباح الباكر استيقظ يوسف. لا بد أن ينأى بجسده مبكراً قبل أن تدوسه اقدام المصلّين. جلس على المصطبة الرخامية، وبلّى رأسه تحت حنفية الوضوء ونفضه مثل عصفور بلّه المطر، وارتدى دشداشته وأقعى «الكمة» على رأسه بميل خفيف إلى الأمام وتحسّس المكافأة في جيب دشداشته وطفق يفتش عن عمل. وكان يحاذر أن يلتقي أيّاً من الرجال الكبار.